إيكولوجيَّة مدينة القدس
في ضوء المعالجة البيئيَّة والاجتماعيَّة والنفسيَّة للمكان
منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى نهاية الانتداب البريطاني

د. فايز إبراهيم أبو ستّة

دائرة الجغرافيا ودراسات المدن -
كليَّة الآداب/ جامعة القدس - فلسطين

مقدمة

استمرّ السّكان المقدسيون من مختلف الانتماءات العرقيَّة والطائفيَّة؛ يهودًا ومسيحيّين ومسلمين في التكيّف والاندماج وبناء نسيج المجتمع المقدسيّ طوال عقود عديدة، ومنذ الفتح الإسلاميّ كانت القدس مدينة إسلاميَّة موحّدة، ولم تكن مقسّمة تبعًا للانتماءات الإثنيَّة - الدينيَّة داخل الأسوار[1]. مع العلم أنّ التّسميات الجغرافيَّة العبريَّة الحاليَّة وتقسيمات الأحياء الحاليَّة (الحي الإسلامي والمسيحي واليهودي والأرمني) لم تكن موجودة من قبل. وبالأحرى تكوّنت تاريخيًّا حارات البلدة القديمة تبعًا لمهنة أصحاب الدكاكين فيها، كحارة المبيضين، الذين كانوا يوجدون في سوق خاصة داخل البلدة القديمة، حيث يطلون الأواني والقدور والأوعية النحاسيَّة المستخدمة في إعداد الطعام وتقديمه بالقصدير، كذلك حارة الجوالدة أو الدباغة (دباغي الجلود)، أو حارة خان الزيت (نزل تجار زيت الزيتون) أو أنها كانت تبعًا للعشيرة أو العائلة المقيمة في المكان مثل عقبة الخالديَّة نسبة لعائلة الخالدي، وكذلك أفراد عشيرة بني زيد الذين أنشؤوا حارة بني زيد في الموقع المعروف اليوم باسم

(1) شكل المسلمون أغلبية سكانية منذ أربعة عشر قرنًا وحتى عام 1948.

عقبة المولويَّة شرقيّ باب العامود.

إلا أنه ومنذ أن بدأت المدينة تنمو خارج أسوارها في منتصف القرن التاسع عشر، وبداية ظهور الضواحي والأحياء الطائفيَّة، بدأت تبرز بوضوح مؤثرات البناء المكانيّ المسيّس بقوة في السلوك البشريّ للمجتمع المقدسي، الأمر الذي أضعف وبقوة إمكانيَّة استعادة مدينة حيَّة متجانسة مع نفسها متعددة الانتماءات، تتميز بأسماء أحيائها وحاراتها وطوائفها التي كانت تشكل انتماءات مشتركة للمدينة الدنيويَّة[1].

منذ انهيار الدولة العثمانيَّة وبداية الاستعمار البريطانيّ وحتى خط الهدنة عام 1948 أخذت المدينة تشهد إنتاج اللامساواة المسيّس، حيث بدأت تتشكل ولأول مرة في التاريخ الحديث حدودًا شبه فاصلة بين التجمعات الإثنيَّة (حدود العرب واليهود).

من هنا فهمت بيئة القدس كنسق إيكولوجيّ لتفاعل وظيفيّ للإنسان المقدسيّ مع بيئة طبيعيَّة وثقافيَّة ذات تأثير فعّال، لا كنسق إستاتيكيّ ثابت لشكل المدينة المكانيّ أو تمايزها المساحيّ في ضوء خصائص المكان والموقع فحسب، بل فهم هذا النسق من منظور التفاعل والتنظيم المكانيّ وأثره في تحديد عمليات الاستخدام المحتمل للمكان، التي إما تعمل على تدعيم حالة التوازن أو في تحديد عمليات تشكيل المكان، التي تؤدي إلى حدوث تغيرات تدريجيَّة أو في عمليات تحويل المكان، التي تؤدي إلى تغيير جذريّ للبيئة المقدسيَّة بشكل مقصود وهادف لأسباب سياسيَّة.

مع نهاية القرن التاسع عشر وفرض الانتداب البريطانيّ على فلسطين، أخذت المعالجة الإيكولوجيَّة تنظر إلى حياة سكان القدس في ضوء علاقاتهم ببيئتهم المتغيرة باستمرار كمطلب ضروريّ لفهم مشكلاتهم التي تتميز بكثافتها العالية وظهور حالة من عدم التجانس الاجتماعيّ بين سكانها، والذي يصل إلى حد عدم التجانس العرقيّ والدينيّ والثقافيّ. فتنوع جماعات المدينة، والصراع أصبح واضحًا بين الانتماءات اليهوديَّة (الّتي

(1) في الوقت الذي نرى فيه نزعة المؤرخين العرب العلمانيين (مثل عارف العارف في كتابه "المفصل في تاريخ القدس" ومحمد أديب العامري في كتابه "عروبة القدس") المبالغ فيها في تصوير حالتي الانسجام والإخاء بين العرب واليهود في مدينة القدس قبل حرب 1948 وقبل بروز التيار الاستعماري الصهيوني في تاريخ القدس، نرى التأريخ الصهيوني نزعة إلى تصوير الصراع بين العرب واليهود كأنه تناقض أزلي يعود الى غابر العصور. وفي أحسن الأحوال يظهر هذا أن المجموعات اليهودية كانت محمية بصفتها من أهل الذمة في الدولة العثمانية وفي عهود الخلافات الإسلامية الأخرى في مصر وبلاد الشام.

تشمل اليهود العرب الفلسطينيين واليهود المهاجرين وعلى رأسهم الأشكناز) والانتماءات الفلسطينيَّة[1] (الّتي تشمل المسيحيين والمسلمين العرب والطوائف اليونانيَّة والأرمنيَّة)، والحراك الجغرافيّ والاجتماعيّ المتزايد لسكانها أصبحت سمة أساسيَّة في إيكولوجيَّة المدينة.

ويظهر تأثير إيكولوجيَّة مدينة القدس على ساكنيها كلما ازدادت نموًّا في الحجم؛ فبازدياد عدد المقيمين بالمدينة ازدادت الروابط بينهم ضعفًا، كما تعرضت العلاقات الاجتماعيَّة للتغّير والتبدُّل، كما هو الحال بين الفلسطينيين (مسلمين ومسيحيين) واليهود. وتحولت تلك العلاقات الاجتماعيَّة في ستينيات القرن التاسع عشر (الفترة التي بدأ اليهود الأوروبيون السكن في القدس لأول مرة في التاريخ) إلى حد ما إلى علاقات لا شخصيَّة وسطحيَّة ومؤقتة وسريعة الزوال، وما انفكت الحركة الصهيونية ولاحقًا الدولة المحتلة تهدد المدينة بسياسات الإقصاء المختلفة التي تمارسها.

ومن هنا ستتم المعالجة الإيكولوجيَّة للقدس في ضوء عناصر النظام الإيكولوجيّ الحضريّ Elements of Urban Ecological System الذي يتكون من خمسة عناصر متداخلة ومترابطة وتعتمد على بعضها بعضًا، وهي السكان Population والبيئة Environment والتكنولوجيا Technology والتنظيم Organization وأخيرًا العنصر الاجتماعيّ والنفسيّ Socio Element – Psychology (P.E.T.O.S.)[2]. إن العنصر الأخير «النفسّي الاجتماعيّ» سيشكل المحور الأساس في المعالجة الإيكولوجيَّة للمدينة.

1 - السكان Population:

مع منتصف القرن التاسع عشر وتحت ضغط الكثافة السكانيَّة المرتفعة في البلدة القديمة واكتظاظها وندرة المياه فيها، وخاصة في فصل الصيف الحار، بدأت عائلات أعيان المدينة وأشرافها بناء منازلها الفخمة المحاطة بالبساتين خارج أسوار المدينة في اتجاه الشرق والشمال

(1) كلمة فلسطيني في فترة الانتداب البريطاني كانت تشير إلى المواطنين العرب واليهود من سكان المدينة، وطبعًا فإن كلمة "عربي" تبلورت لتشير إلى السكان المسيحيين والمسلمين معًا، في مقابل يهود فلسطين الذين أخذوا ينضمون إلى الحركة الصهيونية ويتماثلون لأهدافها وخصوصًا بعد ثورة 1936 وازدياد الهجرة من أوروبا الفاشية، ومما زاد في تعقيد هذه المسألة أن أعدادًا كثيرة من سكان يافا وحيفا والقدس اليهود كانوا يتكلمون العربية بصفتها لغة الأم، ومن ناحية أخرى عاشت في القدس مجموعات فلسطينية أخرى لم تعرف نفسها ضمن المجموعات اليهودية أو العربية – لكنها كانت فلسطينية قبل كل شيء، ومنها الأرمن والسريان والحبش في البلدة القديمة، وأعضاء جمعية الهيكليين الألمانية في المدينة الجديدة.

(2) Noel Pitts Gist Sylvia Fleis Fava، Urban society. Fifth edition، page 151، uk، 1969.

(وادي الجوز وباب الساهرة والطور والشيخ جراح) واتجهت قلة من هذه العائلات البرجوازيَّة نحو الغرب (الشيخ علي الخليليّ وآل النّمري وآل الوعري)، حيث وجدت أيضًا بعض الأحياء اليهوديَّة الحديثة والسابقة للمشروع الصهيونيّ (ومن أهمها البارون دي روتشيلد في حيّ مونتفيوري وحيّ يمين موشيه قبالة جبل النبي داود).

تكوّنت الأحياء العربيَّة من عدة تشكيلات ارتبطت بشبكات التضامن العائلي، وبعلاقتها بالسلطة العثمانيَّة، وبمشايخ القرى المجاورة للقدس غربًا. ونستطيع أن نشير هنا إلى ثلاثة عوامل تضافرت على دفع حركة الهجرة والعمران إلى هذه الأحياء الجديدة[1]: 1) اقطاعات الدولة العثمانيَّة لعائلات معينة في مقابل خدماتها للدولة، 2) توطيد الوضع العائليّ في أراضٍ متروكة غربيّ المدينة، 3) تخصيص أراضٍ من وقف الكنائس المسيحيَّة (معظمها من أملاك دير الروم الأرثوذوكس) لأتباعها من الطائفة لإسكان العائلات التي ضاقت بها حارات المدينة داخل السور. ورافق مشاريع النمو العمرانيّ العائليّ العربيّ، في هذه الفترة، نمو عمرانيّ مطرد قامت به مؤسسات الأديرة المسيحيَّة (يونانيّ، فرنسيّ وإيطاليّ)، والمؤسسات الخيريَّة اليهوديَّة، وتجمعات الهيكليين الألمانيَّة التي بدأت ترسيخ وجودها في التلال الغربيَّة قبيل بداية القرن العشرين. كما ويُعتبر حيَّا آل النمري وآل الوعري في البقعة الفوقا والبقعة التحتا من أقدم مشاريع العمران الموثقة في أحياء القدس الغربيَّة[2].

وقد جاء النمو الحقيقيّ لهذه الأحياء الغربيَّة مع بداية الانتداب البريطانيّ ومع النهضة الاقتصاديَّة التي رافقت المشاريع العامة لحكومة الانتداب وتبلور طبقة جديدة من التجار وأصحاب المهن وموظّفي الدولة. واستفادت الطبقة الوسطى الفلسطينيَّة من هذا التوسع، وخصوصًا عندما برزت أجهزة الدولة والجيش والشرطة داخل العاصمة في العشرينيات وساعدت على انتقالها من اكتظاظ البلدة القديمة إلى الضواحي البرجوازيَّة الحديثة في القطمون والطالبيَّة والبقعة. كما استفادت الجالية اليهوديَّة في القدس من اقتصاد الانتداب، وعززت نموها في رحفايا وميكور حاييم وتلبيوت. وتكوّنت أحياء مؤلفة من عائلات ممتدة (النمري، والوعري، والشماعة) إلى جانب أحياء تعايش فيها اليهود والمسلمون والمسيحيون (روميما، المصرارة، مئاه شعاريم).

(1) سليم تماري، القدس 1948، الأحياء العربية ومصيرها في حرب 1948، صفحة 5، الطبعة الأولى: مؤسسة الدراسات الفلسطينية – بيروت 2002، الطبعة الثانية : مؤسسة الدراسات المقدسية وبديل – القدس – 2003.

(2) المرجع السابق.

ولأهداف سياسيَّة، سعت سلطات الانتداب البريطانيّ إلى تهيئة الظروف للاندماج الاجتماعيّ **المسيس والهيكليّ والمقصود** للمهاجرين اليهود الأشكناز مع المجتمع الفلسطينيّ من خلال الحارات المختلطة إلى حدٍ ما في أحياء كثيرة من القدس، **بدأت الحركة الصهيونيَّة** تدفع باتجاه انتشار الانفصال كتعبير للإيديولوجيا والثقافة الصهيونيتين في أوساط المهاجرين اليهود (تعزيز فكرة الصراع الأزليّ مع العرب)، الأمر الذي أدى إلى ردة فعل قوميَّة في الأوساط العربيَّة على التحيز الواضح واللامساواة التي تعززها سلطات الانتداب البريطانيّ لصالح المهاجرين اليهود الأوروبيون في القدس، الأمر الذي أضعف العلاقات الاجتماعيَّة بين اليهود والعرب بصورة عامة، وقوّى العلاقات فوق الطائفيَّة (القوميَّة) بين المسيحيين والمسلمين العرب. وسمح بتقوية هذه النزعة غياب الخلفيَّة العربيَّة واللغة العربيَّة كلغة للتخاطب في أوساط يهود القدس (لأن أغلبيتهم من المهاجرين الأوروبيين الأشكناز) خلافًا للوضع السائد في الخليل وطبريَّة وصفد[1]، حيث إن اليهود في تلك المدن عربٌ وليسوا مهاجرين أشكناز غربيين.

كانت قضيَّة تنظيم الأراضي وترسيم حدود البلديَّة في فترة الانتداب هي جوهر الصراع الإقليميّ في القدس. ففي حين شكل الفلسطينيون العرب من مسيحيين ومسلمين أغلبيَّة في لواء القدس كوحدة تشمل القرى والبلدات المحيطة بالمدينة، استطاع اليهود (عربًا وأشكناز غربيين) أن يصبحوا أغلبيَّة داخل حدود البلديَّة (سنة 1947: 99 , 4 ألف يهوديّ مقابل 65 , 1 ألف عربي)[2]. ويعود الفرق بين هذه النسب إلى أمرين، أولهما أن الإحصاءات البريطانيَّة المسيّسة، اعتادت احتساب المهاجرين الذين وصلوا إلى القدس قبل سنة 1948، ثم انتقلوا إلى تل أبيب ومناطق أخرى، كأنهم ما زالوا في القدس، والأمر الثاني أن الإحصاءات البريطانيَّة قد استثنت سكان الأرياف المحيطة بمدينة القدس الذين يعملون فيها (منهم، مثلًا، العاملون في المدينة من سكان لفتا ودير ياسين)، بينما احتسبت في الوقت ذاته اليهود القاطنين خارج حدود البلديَّة وكأنهم سكان المدينة، **وهي عمليَّة التفافيَّة مسيّسة يسميها دمبر «الإحصاء الديمغرافيّ الهيكليّ»**[3].

(1) سليم تماري، القدس 1948، الأحياء العربية ومصيرها في حرب 1948، صفحة 7، الطبعة الأولى : مؤسسة الدراسات الفلسطينية – بيروت 2002، الطبعة الثانية : مؤسسة الدراسات المقدسية وبديل – القدس – 2003 .

(2) المرجع السابق.

(3) سليم تماري، المرجع السابق.

وقد شكل خطّ الهدنة واحتلال الجزء الغربيّ من مدينة القدس عام 1948 بداية حقبة أخرى من الصراع والتنافس على الحيز المكانيّ في القدس بين اليهود والفلسطينيين، وتجلّى الصراع في أبرز صوره عند إحلال عائلات يهوديَّة مهاجرة من مختلف بقاع العالم في مساكن وبيوت الفلسطينيين في الجزء الغربيّ من المدينة بعد إجلاء وطرد السكان الأصليين من مساكنهم التاريخيَّة.

وبهذا التحول الدراماتيكيّ الذي شهدته مدينة القدس بشقيها الغربيّ والشرقيّ فرضت على المدينة أشكالًا حديثة من عمليات التحضر المقننة والمقولبة بشكل تدريجي، وأصبحت حركة السكان كصفة أخرى لإيكولوجيا القدس، سواء مؤقتة أو دائمة ضمن المدينة، أو بينها وبين المدن الفلسطينيَّة الأخرى، أو بينها وظهيرها الريفيّ الذي يضمُّ عددًا كبيرًا من القرى والتجمعات الفلسطينيَّة، تأخذ أشكالًا جديدة لم تعهدها المدينة من قبل.

أيضًا وانطلاقًا من مبدأ الصراع والتنافس على الحيز المكانيّ أخذت المدينة تشهد ظاهرة الهجرة، مثل التهجير الخارجيّ migration للفلسطينيين من الجزء الغربيّ للمدينة ومن القرى الغربيَّة أيضًا[1] أو الوافدة immigration لليهود، كما شهدت حركات سكانيَّة أخرى مثل التجمع والانتقال commutingمن عنوان لآخر[2]. وكلها لها دلالتها المحددة والمنتظمة إيكولوجيًّا، كما سنلاحظ لاحقًا في معالجتنا للعنصر النفسيّ الاجتماعي. كذلك فالمعالجة الإيكولوجيَّة للسكان قد انسجمت مع حالة التطور التكنولوجيّ الذي شهدته المدينة والذي كان له تأثير واضح على تنظيم المدينة وعلى بيئتها الطبيعيَّة والثقافيَّة.

2 - البيئة Environment:

يميل المنظور الإيكولوجيّ إلى تعريف بيئة القدس في حدود الموقع، والمناخ، والموارد الطبيعيَّة، والخصائص الطبوغرافيَّة، والتغيرات الجيولوجيَّة. ويمثل متغير البيئة في المعالجة الإيكولوجيَّة وعاءً سكانيًّا وتنظيميًّا، للحشد أو التجمع السكاني. كما يفيد استخدامه في تفهم مؤثرات الموقع أو المكان، بخصائصه السابقة، على حجم السكان وكثافتهم ونوعيات تنظيمهم وعمليات توافقهم. فالاكتظاظ السكانيّ وندرة المياه الذي شهدته البلدة القديمة

(1) قرى القدس الغربية (لفتا والمالحة وقالونيا والقسطل ودير ياسين وبيت صفافا والولجة والجورة وعين كارم وهذه كانت في طريقها لأن تصبح ضواحي مدينية، وثبتت أسعار الأراضي الزراعية فيها كالأراضي العقارية والتي إما دُمرت جزئيًّا أو مُحيت تمامًا من على وجه الأرض).

(2) انتقال اللاجئين الفلسطينيين من الجزء الغربي والقرى الغربية لمدينة القدس والإقامة والسكن في الجزء الشرقي من المدينة.

في منتصف القرن التاسع عشر، علاوة على الحر الشديد صيفًا الذي يصل في بعض الأيام من شهر يوليو/ تموز إلى نحو 41 درجة مئويَّة[1]، دفع العديد من العائلات الغنيَّة إلى بناء منازل فخمة خارج سور البلدة القديمة، وتمتاز هذه المنازل بالحدائق والبساتين من حولها، ويقع بمحيطها آبار لجمع المياه من على أسطحها في فصل الشتاء ليستخدمونها صيفًا.

في الوقت الذي تبلغ فيه التعديلات التي يدخلها الإنسان على البيئة ذروتها في المدينة، إلا أنه لا تزال عوامل الموقع والطبوغرافيا تلعب دورًا فعالًا في تحديد النمط الإيكولوجيّ وعمليات النمو الحضري. إن أحد العوامل الحاسمة التي أثرت في النمو العمرانيّ لضواحي وأحياء مدينة القدس هو قربها من المنحدرات الغربيَّة التي تتميز بخصوبة التربة وبنسبة عالية من كميات الأمطار والغطاء النباتي[2]. وتوجد في المنطقة جداول ماء دائمة الجريان، كما تتميز الأرض بانحدارها المتدرج في اتجاه اللدّ والرملة والسهول الساحليَّة[3]. في المقابل، فإن المنحدرات الشرقيَّة كانت أقل كثافة سكانيَّة وعمرانيَّة بسبب وقوعها في ظل المطر وأراضيها قاحلة أو شبه قاحلة، والتربة فيها فقيرة، وهي شديدة الانحدار نحو وادي الأردن، وهذا ما يجعل من الصعب تدرجها كسلاسل. والنتيجة هي تركز كثافة سكانيَّة أعلى في المنطقة الغربيَّة لمدينة القدس.

على الرغم من أن البيئة تضع حدودًا لحجم وكثافة السكان، إلا أن عمليَّة التعديل تظل مستمرة ومترابطة، لأن الإنسان مستمرٌّ في تعديل بيئته من خلال ما يمتلكه من تكنولوجيا وثقافة. فانسجامًا مع نمو المدينة نحو الخارج وظهور أحياء وضواحٍ جديدة خارج البلدة القديمة، صدر مرسوم بإنشاء أول مجلس بلدي للمدينة سنة [4]1863، وكان من جملة أعماله إنشاء نظام صرف صحيّ في سبعينيات القرن التاسع عشر، وفي التسعينيات جرى تنظيم جمع القمامة بصورة دوريَّة، وعلقت مصابيح الكاز لإضاءة المدينة، وكانت الشوارع ترش

(1) هاشم أبو هلال (2003)، التغير العمراني لمدينة القدس وتحليل المخططات التنظيمية الإسرائيلية في المدينة، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية/ عمادة كلية الدراسات العليا، صفحة 29.

(2) د.عزيز الدويك، تصنيف قرى القدس ووظيفتها، مجلة شؤون تنموية، الملتقى الفكري العربي، القدس 1995/ 1996.

(3) هاشم أبو هلال (2003)، مرجع سابق، صفحة 32.

(4) راسم خمايسي (1998)، مخطط الحيز الحضري والوظائفي في القدس، مركز التخطيط والدراسات، كفر كنا، صفحة 30.

بالماء في أوقات معينة من السنة لمنع تطاير الغبار. وفي سنة 1892، افتتحت حديقة عامة للجمهور في المدينة الجديدة في شارع يافا قبالة المسكوبيَّة. وقبل الحرب العالميَّة الأولى بفترة وجيزة زُرعت أشجار على امتداد بعض الشوارع.

يفيد استخدام العنصر البيئيّ أيضًا في معرفة التنظيم الحضريّ وخصائصه والعوامل التي تؤثر في تشكيله على نحو معين، إيكولوجيًّا واجتماعيًّا وإمكانيات واتجاهات متغيرة، والنتائج المترتبة على ذلك كله، والتي تنعكس على خصائص السكان والتنظيم الحضري. فما أن حلت سنوات الأربعينيات حتى بدأت أحياء المدينة تتلاصق بالقرى المحيطة بها. وقد أدى هذا الامتداد إلى تبلور نمطين من العمران، الأول بروز ضواحٍ مدينيَّة مريَّفة، أو بالأحرى قرى أصبحت تشكل حارات ممتدة للمدينة، كما هو الحال بالنسبة إلى لفتا والمالحة ودير ياسين وعين كارم. أمّا النمط الآخر فهو تلاصق هذه الأحياء العربيَّة ومستعمرات يهوديَّة أشكنازيَّة، مثل ميكور حاييم ومئاه شعاريم ورحفايا[1]. وقد ساعد اندماج اقتصاد القرية الفلسطينيَّة ضمن البناء الحضريّ لمدينة القدس ازدياد الطلب على الأيدي العاملة الماهرة في قطاع البناء واستيراد المادة الخام من محاجر القرية، وقد شكلت مناطق (التماس) بالأحياء الجديدة، وهي المناطق المحاذية لأحياء المصرارة وروميما والطالبيَّة بدايات تجمعات يهوديَّة عربيَّة مشتركة، فعززت أنماط التبادل والاعتماد الاقتصاديّ والمؤسساتيّ أشكالًا من التعايش الاجتماعي[2].

3 - العنصر التكنولوجيّ Technology:

إن نماذج الحيز (المكان) الداخليّ لمدينة القدس هو إلى حدٍّ معتبرٌ جدًّا خليقًا للتكنولوجيا، خاصة تكنولوجيا الصناعة والمواصلات، فمع نهاية الحكم العثمانيّ للقدس في سنة 1917، كان التقدم التكنولوجيّ لتلك الفترة أحد المحددات الأساسية للتغيرات التي أُحدثت في الحياة وفي المدينة، وأبرزها انفصال مكان الإقامة عن مكان العمل للعديد من المواطنين. علمًا أن البلدة القديمة تميزت لفترة طويلة بعدم انفصال مكان العمل عن مكان الإقامة وبشكل خاص في الحارات التي كان سكانها يمارسون الحرف والصناعات التقليديَّة. وقد ذكر عالم الآثار الأميركيّ إدوارد روبنسون، أنه كان في القدس في العام 1838 تسعة معامل

(1) سليم تماري، مرجع سابق.

(2) سليم تماري، مرجع سابق.

لصنع الصابون، وعشر معاصر لزيت السمسم، ومدبغة كبيرة، وورشات كثيرة لصنع التحف التذكاريَّة، وفي أوائل القرن التاسع عشر كان هناك نحو عشر مصابغ للألبسة تبيع الأقمشة البيض والزرق للبدو والفلاحين، وفي الخمسينيات كان هناك عشرون مطحنة للقمح في المدينة، ولكن مع تحولها إلى العمل بقوة البخار وازدياد إنتاجيتها، أغلق كثير منها أبوابه. وقبل الحرب العالميَّة الأولى كان هناك مصانع لصنع المعكرونة، كما أن صناعة الحجر والطوب والسيراميك كانت جزءًا من الأنشطة الاقتصاديَّة في القدس قبل الحرب[1].

في سنة 1892 أنشئ خط سكة حديد ربط بين القدس وميناء يافا، الأقرب اليها. واستخدم هذا الخط في الأعوام الأولى بصورة واسعة لنقل الحجاج والمسافرين، لكن سرعان ما استخدم لنقل البضائع والعمال الذين أخذوا يتنقلون بين أماكن إقامتهم وأماكن عملهم، كما ربطت طرقات واسعة ملائمة للعربات بين القدس من جهة، ويافا ورام الله ونابلس والخليل عبر بيت لحم وأريحا من جهة أخرى، بالإضافة إلى قرية عين كارم المجاورة ومقام النبي صموئيل[2]. ومع بداية القرن العشرين كانت أرصفة من الحصى قد أنشئت على جانب الطرق الداخليَّة في مدينة القدس الجديدة، طريق نابلس وطريق ماميلا وطريق يافا وشارع الأنبياء. ومنذ سبعينيات القرن التاسع عشر وصلت خطوط التلغراف مدينة القدس بمصر وبيروت وأوروبا. وتمتع السكان بخدمات بريديَّة متعددة، عثمانيَّة وروسيَّة وألمانيَّة ونمساويَّة وفرنسيَّة وإيطاليَّة، وذكرت بيرتا سبافورد، وهي أميركيَّة كانت تقيم بالقدس، إن السلطات التركيَّة سمحت لهم بتركيب هاتف في الكولونيَّة الأميركيَّة[3].

وقبل الحرب العالميَّة الأولى بفترة وجيزة نوقشت خطط لإدخال الحافلات الكهربائيَّة ونظام الهاتف إلى المدينة، وفي سنة 1914، منحت بلديَّة القدس امتيازًا من أجل تزويد المدينة بالكهرباء.

استخدمت المطابع أول مرة في المدينة في الأربعينيات من القرن التاسع عشر. وكانت توجد في تلك الفترة مطابع في دير اللاتين (الفرنسيسكان) ودير الأرمن، ولدى طائفة الروم الأرثوذكس والطائفة اليهوديَّة، وبين سنتيّ 1876 و1916، صدر عدد من الدوريات

(1) روشيل ديفيس، مرجع سابق، صفحة 23.

(2) روشيل ديفيس، القدس العثمانية، نمو المدينة خارج السور، مرجع سابق، صفحة 19.

(3) نفس المرجع السابق، صفحة 19.

والجرائد العربيَّة، منها الجريدة الحكوميَّة "القدس الشريف"[1].

4 - التنظيم Organization:

يعتبر التنظيم عنصرًا حاسمًا في التعقيد الإيكولوجيّ لمدينة القدس، فلقد نمت أسس التجمعات السكنيَّة الجديدة (الكولونيَّة الألمانيَّة والكولونيَّة اليونانيَّة والقطمون والطالبيَّة والبقعة، وغيرها) في الفترة العثمانيَّة المتأخرة بسبب التغييرات في الإدارة وفي القوانين العثمانيَّة المتعلقة بالأراضي، حيث صدر قانون الأراضي سنة 1858 الذي حدد أراضي الملك والميري والأرض الموات والأرض الوقفيَّة والأرض المتروكة[2]. وقد أرسى البريطانيون ومنذ عام 1917، أنظمة التخطيط المقننة المستوردة من الخارج، ومزجوا بين توجهاتهم السياسيَّة الرامية لإقامة وطن قوميّ لليهود في فلسطين وتجربتهم عبر مؤسسات التخطيط البريطانيَّة، وخرجت القوانين التخطيطيَّة في القدس مزيجًا من التجربة البريطانيَّة في التخطيط والتنظيم وبشكل متوافق يحقق الأهداف السياسيَّة التي جاءت بهم إلى فلسطين.

لم تكن عمليَّة الدمج والاستثناء الانتقائيّ العامل الحاسم في التمييز بين تنظيم الحارات اليهوديَّة والعربيَّة في فترة الانتداب، فالعنصر الأهم نجده في طريقة تنظيم الأحياء، ذلك بأن مؤسسات التجمع اليهوديّ كانت حريصة على تنظيم الأحياء اليهوديَّة الجديدة داخل حدود البلديَّة في المناطق الغربيَّة والشماليَّة للمدينة. وكان يوضع لهذه الأحياء مخططات هيكليَّة مدروسة مسبقًا[3]. هكذا كان الحال مع الكثير من "الأحياء الحدائق"، كما كانت تسمى، مثل حيّ تلبيوت وحيّ رحفايا، من تصميم المهندس ريشارد كوفمان[4]، وتشير روشيل ديفيس، في دراستها عن نشوء هذه الأحياء، إلى الطابع المنظم والمبرمج لهذه الأحياء اليهوديَّة، في مقابل أنماط البناء غير المنظم والمشيد بمبادرات فرديَّة وعائليَّة في الأحياء العربيَّة الحديثة[5].

---

(1) المرجع السابق، صفحة 20.

(2) بدر عبد الرازق، دعيبس المر، وآخرون، قوانين الأراضي، القانون العثماني، أحكام الأراضي، القانون الأردني، معاملات الأراضي، أحكام الأراضي المتبعة في البلاد العربية المنفصلة عن السلطة العثمانية، صفحة 6.

(3) Henry، kendel، Jerusalem، The city plan، preservation and developmentr during the mandate (p 1، London).

(4) سليم تماري ص. 8.

(5) المرجع السابق.

وفي خريطة الملكيات العقاريَّة لسنة 1946، التي أعدها سامي هداوي[1]، يتجلى هذا الحيز غير المشترك بمعظمه بوضوح، وتظهر حقائق اجتماعيَّة جديدة بشأن التوليفات الإثنيَّة للمدينة. وتعكس هذه الخريطة بوضوح واقع مدينة أصبحت منقسمة إلى مجموعات إثنيَّة، وهي تقسيمات تُبرز في طياتها أنماطًا اجتماعيَّة مختلفة ومشتركة في آن واحد أحيانًا.

إن تنظيم مدينة القدس فريد من نوعه على مستوى مدن العالم، فهو تنظيم يتم وفق وجهة النظر الصهيونيَّة، لتسهيل حياة المستعمرين اليهود وتنظيم أنشطتهم في القدس على أساس عرقي، والتي أصبحت تعرقل حياة السكان العرب في المدينة، وخاصة أيام السبت حتى في المناطق والأحياء التي تقيم فيها أغلبيَّة فلسطينيَّة، حيث يمنع التجول لعدم إزعاج اليهود المتدينين المقيمين في تلك الأحياء. إذًا فإن تشجيع بعض الأحياء اليهوديَّة العربيَّة المختلطة لم يؤدِّ إلى بناء نسيج اجتماعيّ متماسك، بل خلق بؤرًا للصراع تكون فيها الغلبة للطرف المدعوم من قبل الانتداب البريطاني، ومثل هذه الأحياء، سواء المنفصلة أو المختلطة، أصبحت تشكل عقدة يلتقي عندها العنصر التنظيميّ بالعنصر النفسيّ الاجتماعيّ والتي من شأنها أن تخلق بناء نماذج أفعال محددة مسبقًا حسب الإحساس والقيم والمعتقد الدينيّ والأيديولوجيّ عند كلا المجموعتين اليهوديَّة والعربيَّة وأن تخلق أحكامًا مسبقة بين تلك المجموعات المختلفة.

5 - العنصر النفسيّ - الاجتماعيّ Social - psychological element:

بغض النظر عن الجنس والعرق وحالة الصراع، فإن الإنسان مخلوق فطن وحساس ومخطط وقاصد وقادر على صنع الاختيارات لرغباته، وهو قادر أيضًا على بناء نماذج أفعال محددة حسب الإحساس والقيم التي يحصل عليها، وهو عمومًا شخص يمتلك أحكامًا مسبقة. عادة تكون المفاضلات والقيم والمواقف والمعتقدات عامة عند مجموعة من الناس، يتبنونها ويرغبون بها ويدافعون عنها، بل هي عناصر لتأهيل الأفراد، كي يصبحوا أعضاءً في الجماعة، أي هي عناصر سوسيو سيكولوجيَّة، وكلها تتجلى بوضوح في إيكولوجيَّة مدينة القدس. إن الأمن والخوف والقلق وما يحب أو لا يحب الفرد في الجماعات والأفراد الآخرين يؤثر على شخصيته وحياته الاجتماعيَّة، وبالتالي يؤثر على البنية الإيكولوجيَّة للمدينة.

لقد كان القلق الشديد إزاء الأمن السبب الرئيس الذي يعُزى إليه البطء النسبيّ في توسع

(1) سليم تماري، صفحة 6.

المدينة خارج الأسوار، فحتى أربعينيات القرن التاسع عشر كانت بوابات المدينة تغلق ليلًا وأثناء صلاة الجمعة عند المسلمين. وكانت مسألة الأمن مرتبطة بعلاقات معقدة بين الوجود العثمانيّ العسكري، والزعماء المحليين، و"قطاع الطرق" الذين كانوا يهاجمون زوار المدينة الذين يسلكون الطريق الرابط بين يافا والقدس ويسلبونهم، وقد سمح شيخ أبو غوش الذي كان يستقر بمنطقة استراتيجيَّة على تلك الطريق بجباية (خاوة) من الحجاج السالكين لتلك الطريق[1]. وعندما أصبحت القدس متصرفيَّة في سنة 1858، ازداد الحضور العثماني، الإداريّ والعسكري، الأمر الذي جعل المدينة تبدو أكثر أمنًا ومحميَّة على نحو أفضل. لكن الحقيقة أن العائلات القاطنة في حيّ النبي داود، المجاور لأسوار البلدة القديمة، وفي القرى القريبة – الطور، سلوان، العيزريَّة، دير أبو ثور، وغيرها – كانت تعيش قبل ذلك من دون أسوار. وبالتالي كان يمكن للعيش خارج الأسوار أن يكون آمنًا من الهجمات والغارات، إلا أنه ربما لم يكن ممكنًا بالنسبة إلى المهاجرين اليهود الذين بدؤوا يسكنون القدس لأول مرة في التاريخ، في ستينيات القرن التاسع عشر[2]، والذين لا يجيدون اللغة العربيَّة وليس لهم علاقات بالشيوخ والزعماء المحليين. وتشدد الروايات الصهيونيَّة والإسرائيليَّة على زيادة الأمن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر باعتباره السبب الرئيسيّ في النمو خارج الأسوار.

وفّر ازدياد الوجود العثمانيّ والشعور بالأمان، إضافة إلى النمو الاقتصاديّ للمدينة، كما أن الازدحام الشديد داخل الأسوار، **والرغبة في إظهار الثروة والمكانة في الزخارف المعماريَّة،** دفعًا بالعائلات الإسلاميَّة والمسيحيَّة الثريَّة إلى المدينة الجديدة. وقد تزايد الانتقال بمرور الوقت، وأصبح العيش في المدينة الجديدة مرغوبًا فيه كونه يوفّر بيئة صحيَّة أفضل من تلك التي في المدينة القديمة المزدحمة، **ومؤشرًا إلى ارتقاء السلم الاجتماعيّ والطبقي**. وعلى الأغلب، فإن من بقي في المدينة القديمة هم أولئك الذين ليس بوسعهم شراء قطعة أرض وبناء بيت، أو دفع الإيجارات المرتفعة نسبيًّا للبيوت والشقق في المدينة الجديدة.

وقد ظل الارتباط بالمدينة القديمة متينًا، إذ إن قسمًا من العائلات التي انتقلت إلى المدينة الجديدة، وخصوصًا الجيل الأكبر سنًّا، بقي مقيمًا داخل الأسوار، وخلال العطل كانت

(1) سليم تماري، مرجع سابق صفحة 93.

(2) كان حي مشكينوت شأنانيم أول حي لليهود في القدس الجديدة، وهو مشروع بناء يهودي قام به موزس مونتفيوري، وكان عبارة عن عشرين منزلًا، بُدئ بناؤها في سنة 1855 وأنجز هذا الحي في سنة 1860.

المدينـة القديمـة مركزًا للاحتفالات. وتتذكر هالة السـكاكيني وهي "مسـلمة" أن والدتها وخالتهـا كانتـا تأخذانها مع شـقيقتها في يوم أحد عيـد الفصح إلى البلدة القديمة لمشـاهدة الموكـب الدينيّ للروم الأرثوذكس، وكانت البلدة القديمة في شـهر رمضان مكانًا احتفاليًّا صاخبًا ذا نكهة خاصة[1].

وفّرت الكنائس المسـيحيَّة، ولا سـيما الكنيستان الأرثوذكسـيَّة اليونانيَّة والأرمنيَّة، الفرص لرجال الدين وغيرهم من أتباعها للعيش في أملاك الكنيسة خارج الأسوار، وساهمت بذلك في وجود مسيحيّ كبير في أجزاء من المدينة. وفي الوقت الذي كانت مشاريع البناء والأنماط العمرانيَّـة تغـير وجه المدينة، كان النسـيج الاجتماعـيّ للقدس يتغير هو أيضًـا. فالمدارس، التي أنشـأتها الإرساليات المسيحيَّة والسـلطات العثمانيَّة والمربّون العرب المحليون، وفّرت فرصًا للناس لتغيير حياتهم بالتعلم **واكتساب مهارات لطرق عيش مختلفة**، ومنحتهم فرصًا اقتصاديَّة كالوظائف الإداريَّة والاحتكاك المتزايد بالسياح. وفي حين توقف الكثير من هذه التحولات خلال سنوات الحرب العالميَّة الأولى، فقد عادت بقوة في ظل الانتداب البريطانيّ على فلسطين.

وفي ظـل الانتـداب البريطـاني، كانـت المدينة الجديـدة في القدس، منقسـمة إلى حـد ما إلى مجموعتين من الأحياء، الأولى يهوديَّة والأخرى عربيَّة فلسطينيَّة. وفي هذه الأحياء الفلسطينيَّة نفسـها عاش العرب (مسـيحيين ومسلمين ويونانيين وأرمن)، واشـتركوا في الموارد العامة وأماكن العمل والمناسـبات الاجتماعيَّة. وأصبحت هـذه الأحياء الجديدة مؤشرًا إلى الطبقة الاجتماعيَّة، واسـتثمرت الطبقتان العليا والوسـطى الصاعدتان من المقدسيين الفلسطينيين في هـذه الأحياء واكتسـبتا مكانة بفضلهـا، تاركتان وراءهما البلدة القديمة. ويصف رشـيد الخالـديّ الطبيعـة العامـة اللاطائفيَّـة للمجتمـع الفلسـطينيّ في النصف الأول مـن القرن العشريـن، بـأن الولاءات الدينيَّـة والإثنيَّة لم تكن موجـودة بين الفلسـطينيين، والحقيقة أن القوميتين العربيَّة والفلسطينيَّة هما محور الهويَّة لكل المقدسيين باستثناء اليهود[2].

إن الانفصـال الحيّزيّ (المـكانيّ) لليهود والمرتبـط بانتمائهم الدينـيّ والأيديولوجيّ، مرتبط أيضًـا بعوامـل نفسـيَّة واجتماعيَّـة عديـدة، مثـل المواقـف والأحكام المسـبقة تجاه السـكان

(1) روشيل ديفيس نمو الجوالي في القدس الغربية 1917 – 1948، مرجع سابق صفحة 51.

(2) روشيل ديفيس، مرجع سابق صفحة 52.

الأصليين كونهم عربًا ومسلمين، علاوة على الرأي العام، والحواديث (القصص) التي تنسجها الدعاية الصهيونيَّة التي تصف الفلسطينيين بالغرباء عن المدينة.

إن الفصل العنصريّ لأماكن الإقامة في القدس لا يرتبط بمستوى الدخل بقدر ما يرتبط بالقومية والدين، وهذا يعتبر عزلًا عنصريًّا religio – national segregation . ولكن التمييز لليهود هو بالتأكيد العامل المهم في استخدامات الأرض في مدينة القدس منذ نشأة الحركة الصهيونية[1].

إن عبرنة اسم المكان الجغرافيّ كان من أبرز صور العزل العرقيّ الذي شهدته القدس إبان الانتداب البريطاني، إن الهدف من وراء إطلاق أسماء عبريَّة على الأحياء اليهوديَّة الجديدة وشوارعها، أن يصبح المكان مع مرور الوقت رمزًا لقيم ثقافيَّة يهوديَّة في مدينة القدس، ومن هنا سعى اليهود إلى التأصيل لمن ليس له أصل في المكان، وهكذا فإن فعل هدم بيوت ومساكن الفلسطينيين ونهبها أو إسكان عائلات يهوديَّة فيها إبان حرب 1948 قائم على التقويض لصيرورة التاريخ التي شكلت أبعاد الهويَّة الوطنيَّة الفلسطينيَّة في مدينة القدس. والبناء لا من الركام والأنقاض، بل من قوالب تمت قولبتها بكل رويَّة وأناة، لتسد الفراغ التاريخيّ الذي يحدثه فعل الهدم، فيأتي قدًّا على قد البناء المراد إنشاؤه لتكون حقائق بعد حين.

إن الهويَّة الوطنيَّة الفلسطينيَّة في مدينة القدس تتعرض للطمس والتشويه، وذلك عبر مشاريع ممنهجة أخذت على عاتقها الفصل بين شقّيّ هذه الهويَّة: الروح والجسد، وبذلك يتأتى لأصحاب هذه المشاريع قطع جذور الهويَّة الضاربة في أعماق هذه الأرض التي خضبت كفّيها دماء الشهداء، والهدف من ذلك زعزعة الذاكرة التي بات يخشى عليها بعد أن انفصلت عن تجربتها المعاشة، وتحولت إلى ذاكرة تخف حدّتها وحضورها مع مرور الوقت، وهكذا يصبح المشروع الكولونياليّ أكثر جهوزيَّة للتشكيك في عراقة هذه الهويَّة تمهيدًا لعمليَّة امّحاء لها.

(1) يعرف تخطيط استعمالات الأرض بأنه تقييم منهجي منظم للأرض واستخداماتها القائمة وكذلك للعوامل الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية بطريقة تساعد وتشجع مستخدمي الأرض على اختيار أنماط استخدام مستدامة sustainable تمكن من زيادة الإنتاج وتلبية حاجات السكان، وفي نفس الوقت تحافظ على البيئة، وهذا حسب تعريف د.غنيم، عثمان، تخطيط استخدام الأرض الريفي والحضري، 2001، عمان، ولكن ما يجري فعليًّا من تغيير لاستخدامات الأرض في مدينة القدس ليس من أجل التنمية المستدامة، بل من أجل السيطرة اليهودية على الأرض وكل أجزاء ومرافق المدينة.

بعـض النشـاطات المكانيَّة غـير الاقتصاديَّـة والتي تتضمن أحاسـيس ورمـوزًا ثقافيَّة تؤثر بقـوة في المـكان، وأن مثل تلك الأحاسـيس والرموز ربما يكون لها اعتبـارات أخرى تفوق ما يمكن تصوره عن الاسـتخدام غير المحسـوس وغير الاقتصادي، فالقدس بمسـاجدها وكنائسـها التاريخيَّة وأسـواقها التجاريَّـة وحواريها وشـوارعها وزقاقها تمثـل تاريخًا عريقًا للفلسـطينيين. وقد ظلت حارات وأحياء القدس مناطق إقامة وسـكن مختلطة للمقدسيين مسـلمين ومسـيحيين ويهودًا عبر قرون طويلة، لكن الاسـتعمار البريطانيّ قسمها إلى أحياء للمسـلمين وأخـرى للمسـيحيين وأخرى لليهـود، تقوم على رؤيَّـة تاريخيَّة ميدانيَّة شـاملة تشـمل المناطق التي تقع في حوض البلدة القديمة وبالإشـارة إلى أهميتها التاريخيَّة المزعومة للشعب اليهودي.

اليوم تعيش مدينة القدس تداعيات التطورات التي حدثت في القرن التاسع عشر وما تبعها من سياسـات بريطانية خلال فترة الانتداب، والتي كرسـت الأهداف والوجود الصهيوني فيها. لكن القدس العربية أبت إلا أن تكون عصيّة على الطمس والإقصاء وما زالت بأهلها الفلسـطينيين تناضل من أجل أن تبقى مدينة تشـمل وتسـتوعب محبيها دون إقصاء لأحد، حيث تكون مدينة للعيش المشترك واحترام الديانات وحريَّة العبادة.